مجاز وسبعة أبواب

سعدي يوسف

غصنانِ وانكسرا. . .
لأوقدْ شمعتين، إذن، وأدخلْ
أيَّ بابٍ منكِ أطرقُ
أم أقيمُ وليمتي، غسقاً، على عتباتهِ؟
الأسوارُ شاخصةٌ
وثمَّ كتابةٌ
وكتابُ أسرارٍ من الفخّار،
دولابٌ يدور بمائهِ
واللونُ صحراءُ
(الكتابةُ صالحتني والكتابةَ. . .)
كيف أدخلُ
أيَّ بابٍ منكِ أطرقُ
أو أقيمُ وليمتي؟
غسقٌ على الأسوار
والبرجُ الوحيد أسيرُ ليلِ الجندِ
والطرقاتُ خافيةٌ
يكاد الجبسُ وهو يموِّه الجدانَ يمسي
النورَ
في عتمات هذا التيهِ
يمسي وحدَه النورَ المخالفِ. . .
أين مصباح النحاس يدور فيه النور
أخضرَ
ثم أزرقَ
ثم كوناً كالنحاس؟
ألم تكن مـرّاكشُ الحمراءُ في هـذا
المكانِ؟
ألم تكنِ في بابها، هذا، الأرائكُ؟
والأراكُ؟

هل اختفت عذَباتُه في الرملِ؟
في الذهب المسافرِ
في الرواحل والرواحِ؟
وأين مكتبتي؟
لقد فارقتُها قرنين، حقاً
غير أني ما أزال أرى الرفوف منضّداتٍ
مُذْهَباتٍ
جلدُها الغزلانُ، والخطُّ الذي لا
يشبه الخطّاط
. . . . . .
. . . . . .
فلأجلسْ قليلاً عند مَحْنَى السور
ولأتذكّر الطرقاتِ. . .
من يدري؟
لعلّي أنتهي وحدي
ومن يدري
لعلّي أعرفُ الباب التي كانت تؤدي:
إنها مرّاكشُ الحمراء.

- ١ -

للثلج أو للرملِ
قُلْ:
للثلج أو للشمس. . .
ثم تجيء غرناطهْ!
. . . . . .
. . . . . .
لكنّ نخلاً بالضواحي، ينقل
الخطواتِ أبعدَ

نحو أرض الله
نحو تميمة معقودة بالروح
كيف أقامَ هذا النخلُ عندكِ
كيف قامَ
وأيُّ ثمراتٍ على كِسَرِ الشعير توهّجت
مثل العقيق يمانياً في لحظة الإفطار. . .
تأتي النسمة الأولى من السعفات
والأخرى تأرّجُ بالصنوبرِ
أيّها النخل المهاجرُ
أيّها الجبل البعيدُ
الماءُ يثلج راحتيَّ مُمَسَّكاً بالزعتر
البريّ
بالنعناع
بالعودِ. . .
السفينةُ أقلعتْ
ونأتْ بلنسيةُ العجيبةُ. . .
سوف نرجع للسهوب
وسوف نسري، مثلما كنّا، على طرق
البريدِ
وسوف تستبقُ القوافلُ مثل مسبحةٍ
نخوِّضُ في الرمالِ
وفي عظام جِمالنا
ستكون إفريقيّةُ المنأى
أو المنفى
تكون على أنامل من نحبُّ: الليلَ
والحنّاءَ
والذهبا

تكون الموتَ واللعِبا.
. . . . . .
. . . . . .
وها أنذا، الغريب، أطوف بالأسوارِ
لا النخلُ الذي يذوي يسامرني
ولا أرَجُ الصنوبر في الثّنِيّةِ. . .
ربما ذهبَ الذين أحبُّهم
وبقيتُ. . .
لستُ السيفَ كي أحيا على ماء
الفِرَندِ،
أريدُ أن ألقى الذين أحبُّهم
يا أيّها البرج الوحيد.

- ٢ -

البيتُ تثلمه الجداول من ثلاث
جهاتهِ
والماءُ يهدأُ
تحت قنطرةٍ من الأعشاب والقصب
الخفيفِ
الماءُ يأتي من بعيدٍ
تمّتْ القنوُ التي ليست تُرى
لكنها بيضاء
قالوا: بعدَها الصحراء
قالوا: بعدها إفريقيا السوداء
تمبكتو، ومملكة الممالكِ
والرجالُ ملثمينَ
. . . . . .
. . . . . .
البيتُ تثلمه الجداولُ
كنت أغمسُ كفّيَ اليسرى ببرد الماء
منتظراً
فترجف كفيَ اليمنى
وكنت أسرِّحُ الأعشاب بالقصب
الخفيف
لعلّ أفراس النبيّ، كريمةً، تعدو
لعلّ جرادةً مخضرّةً تبدو
ولعل كنز الجنّ بين أصابعي الوعدُ
. . . . . .
. . . . . .

هيهات ذاك البيت!
كنا في الشتاء نلوذ من ريح الجبال
بشمس باحته الصغيرةِ
بالبرانسِ
بالأغاني والصلاةِ
وأُمِّنا،
هيهات ذاك البيت.
. . . . . .
. . . . . .
هل كان خطوي في سنين الرحلة
العشرين
أبعدَ من معادلة المدى؟
هل كان أبعدَ من تخومٍ لم أضَعْها؟
كان أبعدَ من حدود العين؟
إن كانت جهاتُ البيت، في
مرّاكشَ، التاثتْ
فهل معنىً لهذا البيت؟
وإن كان الطريق إليه ملتبساً، عليَّ
أنا
فما جدوى طريق البيت؟

• • •

يا من بأعلى البرج!
يا جند المدينةِ!
يا سكارى ساحة الإعدام!
يا سور المخازنْ!

- ٣ -

- سأكون خزّافاً. . .
فقال أبي: ستتركنا، إذنْ.
وأقول: كيف؟
يقولُ: من يخلقْ من الصلصال
أشكالَ الطيور يطرْ.
ولكني التففتُ ببرنسي
ومضيتُ نحو السوقِ. . .
دكانُ ابنِ حفصونٍ يواجهني،
اقتربتُ، متمتماً، أتأملُ الفخّار
ساءلني ابنُ حفصونٍ:
أجئتَ لتشتري؟
خذ جرّةً
خذ ذلك الإبريقَ
هذا القِدرَ
خذْ طيراً
وحين تشبُّ تأتيني بأوّل درهمٍ من
رزقك المكتوب
يا ولدي.
أخذتُ الطيرَ
ثم جلستُ، مرتبكاً، أقلّبُه. . .
ووشوشني ابنُ حفصونٍ:
كأنك، يا بنيّ، تريد أجنحةً
تعالَ. . .
وشدّني لَهْفانَ:
سوف تكون خزّافاً،
وسوف أنال أوّلَ درهمٍ من رزقك
المكتوبِ
يا ولدي.
. . . . . .
. . . . . .
وها أنذا أعودُ
أجرُّ خلفي كل ما جرَّتْه لي أعواميَ
العشرون
عبر ممالك الدنيا
أعودُ:
خلقتُ آلاف الطيورِ
برأتُ آلاف الأباريقِ الرهيفةِ
كالنسائمِ
في بلنسيةَ اكتشفتُ معادنَ الألوانِ
في بغداد علّمتُ الصغار تدرُّجَ
النيرانِ
كنتُ أريد أجنحةً
وطرتُ. . .
كأنّ اسمي الطائرُ الجوّابُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
واليوم، انتهيت هنا، إلى هذا المساءِ
الصعبِ:
أدخلُ

أم أغادرُ مرةً أخرى؟
ولكنّ ابن حفصونٍ يطالبني
بأول درهمٍ من رزقي المكتوب...

- ٤ -

عـمّن سأسأل إن دخلتُ؟
وأيةُ امرأةٍ ستهجسُ خطوتي الليليةَ؟
الغسقُ العميمُ
ووحشة الطرقات
والعسس الذين يراقبون النجمَ
من كوّاتهم بالبرج...
فلأهدأ قليلاً
ولأُرِحْ رأسي على حجرٍ:
تعبتُ من الطوافِ
ومن دروب الليلِ،
عائشةُ
افتحي من قصرك المهجور نافذةً
أطلِّي لحظةً
إني وراء السور...
عائشةُ البهيّةُ
هل يغيضُ النور
يخبو، بغتةً، فيذوب في الديجور؟
عائشةُ البهيةُ
كنتُ أحسبُ موعدي وعداً
ولكنّ السنين تمرُّ
والعربات تنأى
والقوافل
والنساء يلدن أو يولدنَ...
هل يجد المسافرُ غيرَ ما تهَبُ الوسادةُ
في خبيء الليلِ:
وجهَكِ وهو يصغرُ
وهو يكبرُ
وهو يهدأ
وهو يدفأ... في يديّ،
كأنني لم أنثر الشَّعرَ الذي جعَّدتُه قُبَلاً
على كتفيكِ عاريتينِ،
عائشةُ البهيّةُ
يا قرنفلةً
ومسكاً ضائعاً
يا طعمَ ريحاني
ويا ريعان أجفاني المغضّنةِ
افتحي من قصرك المسحور نافذةً
أطلِّي لحظةً...
إني وراء السور.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لا همسَ من مرّاكش الحمراءِ
لا تلويحَ
لا لمعانَ نافذةٍ،
بطيئاً سوف يأتي الفجر، مغبّراً
وأبطأ منه سوف أكون في الطرق التي
ملّتْ سُراي.

- ٥ -

الآنَ، والليلُ البطيء يئنّ عند السورِ
أفتحُ راحتي اليمنى
وأستقري الخطوطَ بها:
أرى خطّين معتنقين من طرفٍ
ومنعتقين من طرفٍ،
وخطّاً ثالثاً يمضي ليمسك، مرهفاً،
سبّابتي.
أتشيرُ حيث يشير؟
أم أني أسير كما يسيرُ؟
لمحتُـه للمـرة الأولى، ضحىً، في
معملِ الفخّارِ
كنتُ أديرُ إبريقاً
وراقبتُ انـطباعاً نـاتئاً في قـطعـة
الصلصالِ
قلتُ: جُرِحْتُ...
لكني لمحتُ براحتي الخطَّ العميقَ
يغور في سبّابتي...
أتشير حيث يشيرُ؟
أم أني أسير كما يسيرُ
إلى اليسارِ؟
الليلُ كان يئنّ عند السور
والأحجارُ غائمةٌ
ولم تزل البنادقُ في مدار البرجْ...

•

في معملِ الفخّارِ
كان فتىً يسامرني طويلاً
حين نأوي في المساء إلى مهاجعنا.
ويوماً قال لي - ما أجملَ الذكرى -:
لماذا نصنع الفخّارِ؟
قلت له: لنأكلَ...
قال لي: هل نأكل الفخّارَ؟
قلتُ: بـدرهمٍ من رزقنـا نـبتـاع
خبزاً...
قال: هذا سعرُ إبريقٍ.
أقول: نعم
ويسـألُ: كم نصابُـكَ، يـا فتىً، في
اليوم؟
قلت: أظنّه عشرين إبريقاً أتمِّمُها،
ويسـأل ضـاحكـاً: كم خبـزةً تكفي
ابنَ حفصونٍ؟
أتعرفُ؟
من هنا
من جهدنا
من خبزنا المسروقِ
تبدأ دورةُ السرقاتِ
والشركاتِ...
تغدو دولةً
وتقيمُ أسواراً وأبراجاً
وجنـداً يسهـرون عـلى أبـاريق ابن
حفصونٍ
وسجناً في المدينهْ.

- ٦ -

في فجر يومٍ من جُمادى (ربما الأولى)
وكان البرد يُقرس وجنتيّ
ولم أكن متوضئاً بعدُ،
اعترتني رجفةٌ في كفّيَ اليمنى
وحـين نـظرتُ قـالت لي الخـطوطُ
براحتي:
إيّـاكَ أن تبقـى هنـا، في مـعمـل
الفخّار...

أين ترى سأذهبُ؟
والفتى؟
إن الجميع هنا، نيامٌ في مهاجعهم،
سواه...
أيكون غادَرَنا الفتى ليلاً؟
تأمّلتُ السماواتِ الرمادَ
(وكان ضوء الفجر يكشفها قليلاً)
تمّتَ الأشجارُ مثقلةً بما شهدتْ.
ومن مرّاكش الحمراء
لم يفترَّ في الغبش الثقيل سوى
نُخيلاتٍ مبعثرةٍ
بدت سعفاتُها بيضاً
(أكان الفجر أسودَ؟)
كان أسودَ
كان أسودَ
كان...
جاؤوني
وقد أخْفَتْ برانسُهُم خناجرَهم...
● تعال، تعال!
- أين؟
● تعالَ تعرفْ.
أوثقوني
ثم ساروا بي على مهلٍ
كأنّ الفجر في مرّاكش الحمراء نومُ
الفجرِ:
أسواقٌ مغلّقةٌ
وساحاتٌ تُبعثرُ عِثْيَرَ الأسواقِ...
ساروا بي خفافاً
والبرانسُ مثل أغربةٍ تَلاطمُ في نسيم
الفجرِ...
- أينَ؟
وبغتةً وقفوا
ودقَّ كبيرهم باباً
عرفتُ الباب.
●
في السجن، كان فتاي مغلولاً
وموثوقاً بجذع النخلة الوسطى،
وكان يئنُّ...

لم أعرفْ له وجهاً من الكدماتِ
قالوا لي: أتعرفهُ؟
صمتُّ للحظةٍ،
وبكيتُ...
ساروا بي خفافاً، مرةً أخرى
وفي زنزانة الحسرات ألقَوا بي
أنا والليل...
●
لم أدرِ كم أمضيتُ في نومي
المهشّمِ...
عندما استيقظتُ كانت مقلتاي
أليمتينِ
ثقيلتينِ
وكنتُ ممدَّداً، متورِّمَ الأطرافِ
مزرقّاً
وفي شفتيّ كانت فحمتان:
أريد ماءً...
غير أن الصوت يخفت مثل حشرجةٍ
وتُجهِشُ فحمتانِ:
أريد ماءً...
فجأةً، تمتدُّ كفٌّ لي
وتمسحُ قطرةٌ شفتيَّ (في زنزانتي
شخصٌ سواي)
●
عامين قد أمضيتُ في زنزانتي،
ومعي الفتى
كنا إذا هجع الجنود ونامت الأقفالُ
نرحل نحو دنيا خارج الأسوار
كان يقول لي:
مرّاكشُ الحمراءُ تُبنى الآن، عاليةً
وعاصمةً
فهل نحن الحجارةُ؟
نحن نبنيها، ولكن كي تكون
عظامنا جسراً على الجدران نبنيها،
لتسكن نسوة التجّار والغلمان
أيّ مدينةٍ هذي؟
لنرحلْ خارج الأسوار...
لنرحل قبل أن تمتدّ أيديهم إلينا
قبل أن تبني البنادقُ دولةَ التجّار.

- ٧ -
بعد أن درتُ في الأرض عشرين
عاماً وعامين
لم تَدُر الأرضُ...
هذي المدائنُ أمشي إليها
ولم تمشِ يوماً إليّ،
وكلُّ النجوم التي كنتُ خبّأتُها بين
جلدي وبين القميص
اختفتْ في قصور الضبابِ...
ولم تسكن امرأةٌ راحتي مثل لؤلؤة
رطبةٍ...
لم أجد شجري في الحجرْ
لم أجد حجري في الشجرْ
والبلادُ التي نازعتْني البلادَ
تُسلسلُ أيّامَها،
والليالي:
مسوّرةٌ
فظّةٌ
مثل مرّاكش النائيةْ.
هل قلتُ للفتيان ما أهذي بهِ:
إنّ المدى وهمٌ
وإن الخمر ماء؟
هل قلت للفتيات:
إن على النساء
ألاّ يلدن سوى الأفاعي؟
هل قلتُ: قد كلّتْ ذراعي
ممّا كتبتُ على الحوائطِ...
أيُّ معنىً للصراعِ
إن كنتُ مقتولاً؟
وما الراياتُ
إن أُخِذَتْ قلاعي؟
اتّئدْ يا بُنيّ
اتّئدْ
حين تلقى طريقكَ أطولَ مما ظننتَ
الطريقْ
واتّئدْ يا بُنيّ
عند أول منعطفٍ يتخطّاك فيه
الرفيق

اتّئد يا بني
ولتكن نخلةَ الدارِ
من ذاق ثمراتها لن يضيق
واتّقدْ يا بنيّ
إن موعظة النجمِ :
من غابَ غُيِّبَ . . .
فَلْتتقدْ يا بنيّ!
لكأنني أحبو على كِسَرِ الزجاج . . .
أكلما أدركتُ نبعاً جفَّ نبعٌ قبلهُ؟
ما هذه الدنيا التي جئنا نحاولُها . . .
ظنّا الأرضَ تذكر مهرجانَ فتوّةٍ
لتكون أرضاً
حرّةً
يتسامقُ التهليلُ من أشحارها نحو النجومِ
ظننت أن الخطوة الأولى
تظلّ ـ كما انتهت ـ بيضاءَ . . .
هل تقسو الحقيقةُ دون أن تقسو؟
وتلك البذرةُ السريّةُ السرّاءُ
هل تفنى
لتتركنا نُساقي الوهمَ؟
. . . . . .
. . . . . .
أغمضْ، يا محمدُ، مقلتيك!

●

قلتُ: إنّا بعيدون عن غيضة الآسِ
قمصانُنا نَصُلَتْ في الهجير
وشفّتْ برانسُنا
والرياحُ تذَرِّي جدائلَنا
والشتاءُ الذي جاء جرَّحَ أنفاسنا . . .
هل نظل بعيدين عن غيضة الآسِ
حتى نموتْ؟
قال: يا صاحبي
لا تسلْ عن زمانٍ يفوتْ
لا تسلْ
واحفر الآن في الأرض مثوى
لعلّ النعاس الشفيف
لعلّ النعاس
يُبلِّغُنا غيضةَ الآس

يا صاحبي!
كان الفتى في السجن يرسم لي
نواصي الخيلِ
يرسم، لاهثاً، أعرافَها:
هذي كتائبنا
ستطوي الأرضَ، موسيقى وألويةً
ستهدم كل سجنٍ
وهي تصهل بالنشيد الفذّ طائرةً . . .
وتبلغ «حلمَ آبادٍ»
لترعى زهرةَ الإكسيرِ . . .
قلتُ له: ونحنُ؟
يقول: نتركها لترعى
ثم نأخذ غيرها
ونطير، موسيقى وألويةً
لنبلغ «حلمَ آبادٍ» جديدهْ
هل سوى خفقة السرِّ تفضي إلى السرّ؟
حاولتُ أن ألمسَ النُسْغَ
في ما ترقرقَ من ورق العشبِ،
حاولتُ في تربة السورِ
أن أتقرّى هشاشةَ ما يرفع السورَ . . .
من أين أدخل مرّاكشَ الآنَ؟
من مطمأنِّ الأساريرِ
أم من لهاث السريرةِ؟
من لمسةِ الصخرِ
أم همسةِ السرِّ؟
وحدي أنا الطائفُ الفردُ
لي غصّتي في السؤالِ
ولي بهجتي
ولتطلْ غربتي ما تطول.
ـ سأعود خزّافاً . . .
ويلتفت الفتى، قلقاً، إليّ:
● وكيف؟
هل ضاقت بك الدنيا
وضاعت من يديك صنائعٌ سبعٌ؟
أتعرف أن كل الناس في مرّاكش الحمراءِ

ما عادوا يرون غضارة الفخّارِ؟
ـ كيف؟
● الأغنياء لهم صحاف المنزل الذهبية القوراءُ
ـ والفقراءُ؟
● آنيةُ الصفيح . . .
ـ عجيبة أيّامنا
لكنني سأعود خزّافاً
أعودُ إلى احتكام الطينِ
والنيرانِ
والطيرِ الذي أسماؤه بيديّ،
كم ضَيّعتُ! كم ضيّعتُ!
لكني أعود . . .

●

غسقٌ على الأسوار
والبرجُ الوحيدُ أسيرُ ليلِ الجندِ
والطرقاتُ خافيةٌ
يكاد الجبسُ وهو يموّهُ الجدرانَ يمسي النورَ
في عتمات هذا التيهِ
يمسي وحده النورَ المخالفَ ـ
هذه مرّاكشُ الحمراءُ
إن غادرتُها عشرين عاماً
أو أقمتُ بها
تظلّ عجيبةً: مرّاكشَ الحمراءَ
لا فقراؤها افتقروا
ولا تُجّارُها اتّجروا
تظل مدينةً في الريحِ
درباً للقوافل والجيوشِ
وساحة للسحرِ والأعشابِ والمترادِفات
وفندقاً للصامتين
ونفحةً من غامض الذكرى . . .
ولكني ابنُها
سأظل أرسمُها على الفخّارِ
أُطلقُ منتهاها في طيور الطينِ
أُسْميها: المدينهْ![*].

بلغراد

(*) من مجموعة شعرية جديدة تصدر عن دار الآداب قريباً.